

قيس بن مسهر الصيداوي

في بقعة "الحاجر" الهادئة، حيث تعانق رمال الصحراء سكون الليل، وقف قيس بن مسهر بين يدي الإمام الحسين. لم تكن اللحظة تحتاج لضجيج، بل لقلبٍ يتسع لثقل الأمانة. مد الإمام يده برسالةٍ مطوية بعناية، هي أمل أهل الكوفة ونبض عهدهم. استلمها قيس بوقارٍ تام، مقبلاً يد الإمام ومعاهداً إياه بنظرةٍ تملؤها السكينة والإخلاص: "بأبي أنت وأمي، سأحملها بروحٍ لا تعرف الوهن.".



انطلق قيس يطوي الأرض تحت حوافر جواده، يقطع الفيافي والقفار في مهمةٍ مقدسة. لم يكن يدفعه بريق مجدٍ أو قوة جسد، بل كان يقينه هو المحرك. الرسالة مخبأة في طيات ثيابه، قريبة من نبض قلبه، وكأنها الوديعة التي تحفظ توازن العالم. كان وجهه، رغم غبار السفر، يشع بوقارِ من يحمل نور الحق في جنح الظلام.



فجأة، في منطقة القادسية، برزت من وراء الروابي كتيبة مدججة بالسلاح بقيادة الحصين بن نمير. سدوا عليه المنافذ وطالبوه بتسليم نفسه وما يحمل. وقف قيس شامخاً كالجبل، لم ترتجف يده ولم يغب الوقار عن محياه. أدرك أن اللحظة قد حانت ليثبت أن الوفاء لا يلين أمام كثرة السيوف أو تهديد الأسر.



قبل أن تطوقه الأيدي، وبحركة تنم عن الحكمة والسرعة معاً، أخرج قيس الرسالة. لم يترك للأسرار فرصة للوقوع في يد الظلم. مزق الورق بوقار المضحّي وابتلع الكلمات لتمتزج بكيانه. كانت ملامحه في تلك اللحظة تعكس روحاً تسمو فوق الجسد، حيث غدت الرسالة جزءاً من دمه، آمنةً من دنس الغدر إلى الأبد.



سيق قيس بالأصفاد إلى الكوفة، لكن خطواته كانت تخبر عن روحٍ لم تُهزم. كان يسير بين الحراس بوقفةٍ مستقيمة وجبينٍ مرفوع، كأنه هو الذي يقودهم إلى مصيرهم. السلاسل التي أثقلت يديه لم تثقل قلبه المطمئن، فكلما زادت القيود، زاد شعوره بالحرية، لأن الأمانة قد حُفظت في صدره ولن يصلوا إليها أبداً.



في قصر الإمارة، وتحت ظلال الأعمدة الضخمة، وقف قيس أمام عبيد الله بن زياد. كان القصر يغلي بالحقد، لكن قيس ظل واحةً من الثبات. صرخ ابن زياد آمراً إياه بكشف محتوى الرسالة، فرد قيس بكلماتٍ موزونة قوية: "إنها رسالة الحق إلى قلوبٍ صدقت". لم تهزه التهديدات ولم تغره الوعود، فصمته كان أبلغ من صراخ الجلاد.



عندما يئس الطاغية من إخضاع قيس، أمره بالصعود إلى أعلى القصر لسبّ الإمام الحسين أمام الناس، أو الموت سحقاً. نظر قيس إلى أعالي القصر كأنها بوابة للخلود، وابتسامة رقيقة من اليقين ارتسمت على ثغره. لقد وجد في هذا التهديد منبراً ليُسمع العالم صوت الوفاء في آخر لحظات حياته الدنيا.



ارتقى قيس الدرج الطويل، والحراس من خلفه. مع كل خطوة، كان يشعر بخفة الروح التي تستعد للرحيل. عندما وصل إلى الشرفة العالية المطلة على جماهير الكوفة، وقف شامخاً كأنه في محراب صلاة. كانت الريـح تداعب ثيابه، والناس في الأسفل ينظرون إليه بهيبة، منتظرين الكلمات التي ستغير مجرى التاريـخ في نفوسهم.



استجمع قيس قوة إيمانه وصرخ بصوتٍ ملأ الآفاق، محرضاً الناس على نصرة الحق وفضح زيف الظلم. لم تكن صرخة غضب، بل كانت دعوةً نبيلة بملامح وقورة، أيقظت الضمائر النائمة وهزت أركان القصر. تحولت الشرفة في تلك اللحظة من مكان للإعدام إلى منبرٍ للحق، وقيس من أسيرٍ إلى مبعوثٍ أبدي للوفاء.



وفي لحظة التضحية العظمى، دفعوه من أعالي القصر. سقط جسده الطاهر نحو الأرض، لكن روحه كانت تحلق في ملكوت الخلود. كان وجهه وهو يهوي مليئاً بالسكينة، وعيناه مغمضتان بابتسامةٍ مطمئنة، كأنه يرى وجه الإمام يبتسم له. رحل قيس، لكن صدى وفائه بقي يتردد في كل قلبٍ حر: "لقد أديتُ الأمانة، ووفَيتُ بالعهد."



النهاية

قيس بن مسهر الصيداوي

الطبعة الأولى - ٢٠٢٦م